

وَأُنْسَابُ يَرْتَفِعُ بِهَا أَحْيَانًا إِلَى آلِهَةِ السَّمَاءِ، وَأَحْيَانًا إِلَى أَعَظَمِ الْقَدِيسِينَ فَضْلًا عَنِ الْمَنَاقِبِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي لَا شَيْكَ لَهُ فِيهَا مِنْ أَجْيَالِ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ. إِذَا سَوَّغَتْهَا ظَوَاهِرُ الْأُمَّةِ وَسَانِدَتِهَا الْقُوَّةُ وَالثَّرْوَةُ وَالْكَلِمَةُ الْغَالِبَةُ. وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ أَنْ تَشِيْعَ هَذِهِ الدَّعَاوَى بَيْنَ أُمَّمٍ، وَأَشَدُّ غُرُورًا مِمَّ تَكُونُ فِي غَيْرِهَا! كَأَنَّهَا هِيَ عَوْضُ عَمَّا فَقَدَتْهُ الْأُمَّةُ مِنْ دَوَاعِي الْفَخْرِ الصَّحِيحِ، وَعَزَاءُ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، قَوْمِيَّةٌ تَجْرَى عَلَى وَتِيرَةِ الْأَنَانِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ فِي الظَّهْوِ أَوْ الضَّمُورِ. كَانَ الْمَصْرِيُّونَ يَرَوْنَ أَنَّ الْمَ صَيِّ هُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ، ثُمَّ تَتَوَلَّى الدَّرَجَاتُ بَعْدَهُ إِلَى السَّادِسَةِ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْيُونَانِيِّ عِنْدَهُمْ فِي تَارِيخِهِمُ الْقَدِيمِ، ثُمَّ جَاءَتْ الْعَصُورُ الْأَخِيرَةُ فَإِذَا كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ تَزْعُمُ زَعْمَهَا، الْأُمَمُ الْأَخْرِيَاتِ... وَأَصْبَحَ الْفَخْرُ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ عَلَاقَةً...! نَعَمْ أَصْبَحَ الْفَخْرُ الْقَدِيمُ الَّذِي نَشَأَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الْقَدِيمَةِ عِلْمًا جَدِيدًا لَهُ حَرَمَةُ الْعُلُومِ عَلَيْكَ وَعَلَى عَلَيْنَا أَنْ نُقَرِّبَهَا بِهَا مُؤْمِنِينَ. وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْجَدِيدَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صِيغَةً لَتِلْكَ الْخُرَافَةِ الْعَتِيقَةِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ مِنْ نَتِيجَةٍ إِلَّا تِلْكَ الَّتِي كَانَ الْأُورُوبِيُّونَ يَزْعُمُونَهَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عِلْمٌ، تَكُونُ لِلْأَجْنَاسِ دِرَاسَةً... وَهِيَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْ فِي الْوُجُودِ، وَهُمْ أَصْلَحُ النَّاسِ لِلدَّوَامِ فِيهِ... وَأَمَّا الْأُمَمُ الْآخَرَى فَلَا تَصِيبُ لَهَا إِلَّا نَصِيبُ النَّبْعِ الَّذِي لَنْ يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَطْمَعَ فِي الْمَسَاوَاةِ الْآنَ وَلَا فِي أَيِّ زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ. وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ صَادَقٌ شَرِيفٌ فَسَوَاءٌ قَسَمْنَا الْأُمَمَ إِلَى آرِيَّةٍ وَسَامِيَّةٍ، أَوْ بِيضَاءِ ذَاتِ أَلْوَانٍ فَالْنَتِيجَةُ وَاحِدَةٌ فِي جَمِيعِ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ، أَنَّ الْأُورُوبِيِّينَ هُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَبٍّ وَحَضٍّ، وَأَنَّهُمْ هُمُ السَّادَةُ الْأَعْلَوْنَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسُودِينَ وَتَفَاوُتٌ لَا تَدَارُكُ لَهُ مَا بَقِيَتْ الْأَرْضُ أَرْضًا، لَقَدْ فَعَلَهَا النَّمَسُويُّ "فَرِيدريك هِرْتز" وَقَالَ مَا قَالَ وَأَجْرُهُ عَلَى الَّذِي خَلَقَهُ!! قَالَ لِعُلَمَاءِ الْأَجْنَاسِ الْمُتَعَصِّبِينَ: إِنَّكُمْ مَخْطُؤُونَ جِدًّا مُخْطِئِينَ، وَإِنْ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ لَا يَخْلُو مِنْ أَوْشَابٍ كَثِيرَةٍ يَدْخُلُ فِيهَا شَرْقِيُّونَ وَغَرْبِيُّونَ، وَإِنَّهُ مَا مِنْ مَحْمَدَةٍ تُدْعَى لِأُورُوبَا إِلَّا وَلِلْأَجْنَاسِ وَمَا مِنْ مَدْمَةٍ تُدْعَى عَلَى الْأَجْنَاسِ الْآخَرَى إِلَّا وَفِي أُورُوبَا قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا وَأَيَّدَ كُلُّ قَوْلٍ بِبِرْهَانٍ... وَلَا يَرِيدُ "هِرْتز" أَنْ يَقِفَ فِي الْإِنْصَافِ عِنْدَ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ، لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْفَوَاصِلَ بَيْنَ أَيِّ شُعْبَيْنِ فِي الْعَالَمِ لَيْسَتْ مِنَ الْبُعْدِ وَالْحِيلُولَةِ بَحِيثٍ تَسْتَعْصَى عَلَى